ذاكرة عراقية

العدد (1220) الاثنين (12) ايار 2008
NO. (1220) Mon . (12) May

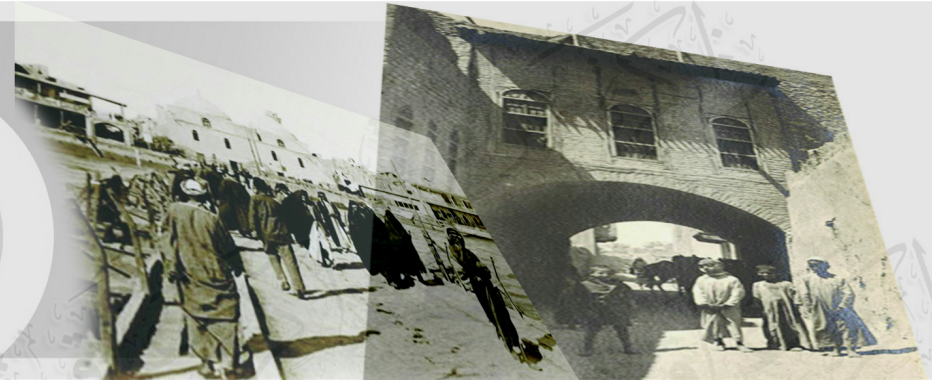

كان قص المراة لشعرها جريمة !

مع الدكتورة سانحة امين زكي :ـ

الفتاة العراقية تقف اليوم جنبا الى جنب مع الرجل .. ولم تتح لها فرص التعليم والعمل والحرية فقط ، بل تجاوزت ذلك الى مجاراة التقليعات المختلفة . فاحدث الازياء التي تعرض في باريس مثلا يمكن ان نراها في بغداد بعد اسبوع . ومواد التجميل الجديدة التي تنتج في البلدان الاخرى يمكن ان نراها موجودة خلال الشهر نفسه في عاصمتنا ولكن الفتاة العراقية اليوم تجهل كيف بدات النهضة النسوية عندنا وابعاد التضحيات التي قدمت من الرجال والنساء على حد سواء من اجل ازاحة الحجاب على سبيل المثال ومن اجل نيل حقوق المراة بشكل عام.

في هذا اللقاء نتحدث الى الدكتورة سانحة امين زكي وهي واحدة من السيدات المثقفات بشكل موجز عن تاريخ النهضة النسوية في بلدنا .

•متى بدات النهضة النسائية الحديثة عندنا وكيف ؟.

- اطل القرن العشرون على العراق ولايزال هذا البلد يعيش في القرون الوسطى بالنسبة للبلدان الاخرى فقد كان متخلفا حتى بالنسبة للبلدان العربية الاخرى مثل مصر التي سبقتنا بمائة عام تقريبا .. اذ احتكت بالمدينة الاوربية منذ بعثة نابليون العسكرية وبعدها مباشرة بدات نهضة عهد الخديوي محمد علي . سوريا (وكانت تشمل ما نعني اليوم بسوريا ولبنان وفلسطين) وكانت لديها الجامعة الامريكية في بيروت والجامعة الفرنسية ايضا ولم تبدا رياح التغيير والاقول عواصف التغيير في العراق حتى سنة ١٩٠٨ أي بعد الانقلاب العثماني .لااقول عواصف التغيرات لان التغييرات سارت في بلادنا بصورة تدريجية وبطيئة اذ فتح الانقلاب العثماني نافذة على الغرب ودخل من تلك النافذة هواء جديد اخذ تياره يبدل الاجواء التي ركدت في البلاد لمدة قرون طويلة

من هذه النافذة دخلت الحضارة الغربية الحديثة باضوائها الساطعة فبهرت الابصار وكان ذلك بداية عهد جديد .

•وكيف تقبل الناس هذه التغيرات ؟.

- قلة قليلة من الرجال هللت ورحبت بالنهضةوتبنت قضية المراة واخذت بيدها كما اخذ الوالدان بيد طفليهما الصغيرين ولكن الاكثرية الساحقة من الرجال نظرت بعين الشك والريبة الى المدينة الجديدة وكرهت ان تعترف بتفوقها او ان تغيير مجرى حياتها وليس ذلك بغريب لان المجتمعات تكره الاعتراف بتفوق الغير وتكره اكثر من ذلك الاعتراف بكونها على الخطا ويكون الاخرون على الصواب . ولم تكن المراة في البداية مغزى التطور لجهلها الفظيع ولكنها بعد ان تعلمت سرعان ما تنبهت وتطورت ونضجت واخذت زمام الامور بيدها وسارت من نجاح الى نجاح رفيقة للرجل ونصيرة مخلصة .

•عن أي طريق بدا التغيير في البداية ؟.

- العلم هو اساس التطور والتغيير بدا منذ انشاء المدارس لتعليم البنات .. وتعليم البنات كان مقتصرا على الكتاتيب والملالي وحتى الملا كان يتردد الكثير من الرجال في ارسال بناتهم اليها . ولم تكن تلك الكتاتيب الا محلات قذرة رطبة تديرها ملا جاهلة امية كل ميزتها انها تحفظ القران الكريم كالببغاء دون ان تفقه معانيه العميقة.

- وأنا ارى من المناسب ان اذكر قصة طريفة جاءت في (معجم العراق) لتعريف القراء بما كان عليه الوضع انذاك بشان المراة وتعليمها .

وقد قرات هذه القصة في كتاب الاساتذة صبيحة الشيخ داود.. والقصة تقول .. ارتاى الوالي نامق باشا سنة ١٩٠٠ انشاء اول مدرسة للبنات في العراق وفي بغداد باسم (اناث رشدية مكتبي) وقرر الوالي ان يعرض على (مجلس معارف ولاية بغداد) هذا الموضوع فلما جمعهم وعرض عليهم ما قرره فوافق الجميع الا انهم اخذوا يتباحثون في امر البناية التي تصلح ان تكون مقرا لمدرس البنات فطال جدلهم وتعددت شروطهم في تلك الدار اذ كان رايهم ان تتصف بالصفات التالية :-

ان لاتكون احدى الدور المجاورة مشرفة عليها

٢- ان لاتكون شبابيكها مطلة على الشارع

٣- انِ لايكون في الدور المجاورة لها اشجاراً عالية والغاية لكي لاتتعرض الفتيات اثناء فرص الاستراحة لاشراف احد المجاورين وكان الشاعر جميل صدقي الزهاوي صامتا وهو احد اعضاء المجلس البلدي ولايبدي رايا . حتى اذا سكت الجميع دون التوصل الى نتيجة تكلم قائلا:

ان الشروط والاوصاف التي بينها حضرات السادة الاماجد لاتنطبق الا على بناية واحدة لم ار اليق منها مدرسة بنات .

قال الوالي : هات يا استاذ ..!

اجاب الزهاوي : ان البناية هي حوض منارة سوق الغزل انه اعلى مكان في بغداد والفتيات يصعدن على سلالمه دون ان يراهن احد وليس له شبابيك ثم اذا تعلمن لايسمع لهن صوت .

رفض دعوة المس بيل

ما هي ردود الفعل لدى ابناء الشعب ازاء هذه التطورات التاريخية الماضية؟.

- لم تلاق المدارس التي افتتحت في العهد العثماني او مدرسة السيد زهرة خضر مالاقته دعوة المس بيل من المقاومة لدى بعض افراد الشعب اذ اعتبرت الدعوة الى فتح مدارس تديرها مدرسات اجنبيات خروجا بالفتاة عن الطريق السوي . وانحرافا عن العادات والتقاليد السائدة وذلك بسبب صدور الدعوة الى افتتاح المدارس من قبل سيدة اجنبية لان الناس كانوا ينظرون الى تلك الدعوة بعين الشك والريبة ولكل دعوة تصدر من حكومة الاحتلال فتعرضت المدرسة الى عاصفة من الانتقادات وصلت الى الشتائم بل حتى الرجم بالحجارة الى المدرسة مما اضطر السلطات الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لسلامة الطالبات والمدرسات والمعلمات . وذلك بوضع حراس من رجال الشرطة .

تطورات جديدة بعد الاحتلال .

•وماذا حدث بعد الاحتلال وقيام حكم وطني

- لقد فتحت مدارس اخرى من قبل وزارة المعارف العراقية .. وفي سنة ١٩٢٤ كانت هناك اربع مدارس (المركزية للبنات) والبارودية وشعبة المركزية والحيدرية . وفي سنة ١٩٢٨ افتتحت اول مدرسة ثانوية للبنات في بغداد وهي ثانوية المركزية وفي سنة ١٩٣٣ تقدمت اول فتاة للدراسة العالية في كلية الطب هي ملك غنام . ابنة المرحوم رزوق غنام وكانت قد تخرجت من بيروت وقد واجهت معارضة اضطرت معها والدها الى الذهاب الى البلاط لمقابلة الملك فيصل الاول الذي استمع اليه ثم امر بقبول الطالبة.

وفي سنة ١٩٣٦ دخلت كلية الحقوق اول طالبة هي الاستاذة صبيحة الشيخ داود وفي سنة ١٩٣٧ قبلت اول دفعة من الطالبات في كلية دار المعلمين العالية ثم اخذت الطالبات بتقديم الطلبات للقبول في الكليات والمعاهد الاخرى وفي الوقت نفسه اتجهت بعض الفتيات الى الدراسة خارج العراق وحصلن على البعثات الحكومية في مختلف الفروع الدراسية في معاهد بيروت والقاهرة واوروبا وامريكا .

بداية السفور وقص الشعر

•وسفور المراة .. هل كانت هناك معارضة شديدة له ؟.

- كانت عادة حجاب المراة سائدة في العراق كما في سائر الاقطار العربية والاسلامية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ومع تطور حركة التعليم والثقافة بدات الدعوة الى السفور وكان الفضل في ذلك يعود الى حركة بسيطة بدات في احدى المدارس الابتدائية للبنات في سنة ١٩٢٤ في بغداد واثارت الحركة المديرة السيدة معزز بوتو سمحت المديرة للطالبات بالاشتراك بالاحتفالات التي جرت لاستقبال الملك غازي ولي العهد انذاك وهن سافرات في زي الكشافة تتقدمهن طالبتان بالعلم العراقي واهتزت الاوساط الرجعية ونددت بالمديرة ووصفوها بابشع الاوصاف ولكن افراداً قلائل من ناصر السيدة المديرة.

اسماء بعض مناصري المراة

•ومن هم الرجال الذين ناصروا قضية المراة العراقية ؟.

- قلة قليلة من مثقفي الرجال وقفت الى جانب المراة وناصرت قضيتها ولكنها قلة وقفت الى جانب الحق ضد الرجعية ويجب على نساء الجيل الجديد معرفة اسماء اولئك الرجال الكرماء الذين وضعوا اقلامهم ومواهبهم في خدمة قضية المراة .

- ومن الشعراء الشاعر معروف الرصافي القى قصائد عديد في ندوات عامة ونشرها في الصحف المحلية طالب بسفور المراة وهاجم التقاليد البالية ودعا الى تعليم الفتاة بقصائد نجدها في ديوانه .

- وكذلك الشاعر الزهاوي بدأ حركته بالمطالبة بحقوق المراة منذ سنة ١٩١٠ وكان ينشرها في الجرائد المصرية واستمر في دعوته الى وفاته سنة ١٩٣٦ ومن الشعراء المعاصرين الذين ناصروا المراة السيد بسيم الذويب فقد نشر سنة ١٩٢٦ وكان طالبا في الكلية العسكرية قصيدة ضد الحجاب في جريدة الصحيفة التي كان يصدرها الأستاذ حسين الرحال وقد اثارت القصيدة ضجة كبيرة في وقتها.

- ومن الكتاب الدكتور سامي شوكت اذ كتب تحت قناع اسم فتاة غسان مقالاته الجريئة ناصر فيها قضية المراة كما ناصرها الصحفي المرحوم روفائيل بطي صاحب جريدة البلاد والمربي الكبير ساطع الحصري الذي تدين له المراة العراقية بالكثير . لانه اصر على فتح المدارس للبنات ودور للمعلمات .

- نساء يناصرن قضية المراة .

- والواقع كان الدور الاول في مناصرة المراة للرجل هو صاحب الفضل عليهن في جميع ما حققته عبر مسيرة نهضتها الحديثة وبالنسبة للنساء اللواتي حملن عباء القضية في دور مبكر السيدة بولينا حسون اول صحفية وقد اصدرت سنة ١٩٢٣ العدد الاول من مجلة ليلى وفي سنة ١٩٣٦ اصدرت مجلة المراة الحديثة وكانت السيدة حمدية الاعرجي صاحبة امتيازها .

مجلة العاملون في النفط ١٩٦٥

سباق الخيل (الريسيز) في بغداد

الوني للاول والبليس للثاني والثالث والجائزة خمس ربيات

الجزيرةُ العربية موطن الجياد الأصيلة، وتأريخ العرب والجياد حافل باخبارها قبل الاسلام وبعد الاسلام، وكانت تقام المسابقات بينها في زمن الخلفاء الراشدين والدولة الأموية الدولة العباسية، ويتنافس الفرسان وجيادهم وينالون الجوائز لقاء ذلك واستمر الحال حتى العهد العثماني يوم كان الولاة والضباط من الاتراك يلعبون لعبة (الجريد) وهي الطعن بالرماح على ظهور الخيل، وكانت مساحات الشيخ معروف بالكرخ تسمى (المنطرد) واراضي الوزيرية وشمالي الكاظمية مسرحا واسعا للخيل وهواتها والصيد والطعن بالرماح.

وحين احتل الانكليز العراق كان اكثر جنودهم من المشاة الهنود والسيك (السيخ) والكركة وبقية الشعوب المرتزقة. اما الضباط، فكانوا اما من البريطانيين او غيرهم يركبون الخيول حسب التقاليد العسكرية البريطانية التي تمنع الضباط البريطانيين من المشي مع فصيله او سريته من الجنود غير البريطانيين.

لذلك كان الاهتمام كثيرا بالخيول وكانت الخيالة البريطانية العسكرية مشهورة في جميع انحاء العالم واعتمدت عليها الامبراطورية البريطانية بعد الاسطول.

وكان المستر (بيل) والميجور (جادويك) اول من اهتم بتأسيس مضمار للسباق في بغداد واسسوا نادي الترف كلوب لهذا الغرض وجعلوا مقره في العلوية محل سكنى الانكليز في بغداد. وانشئت ساحة السباق في باب المعظم بجوار حدائق المعرض الزراعي، وبقي هناك مدة سنتين الى ان تم انشاء ساحة السباق في العلوية قرب بيوتهم، واعلن النظام الخاص بالسباق ونوعية الخيول المتسابقة. واشترط النظام ان تكون الخيول عربية اصيلة، وجعل نظام التشبيه صارما، وهو النظام الذي يميز الخيول العربية الاصيلة مهما كان الامر. وكلمة الميجر جادويك هي النافذة يعاونه في ذلك بعض الضباط الانكليز والعراقيين من البيطرة الاوائل مثل عبدالرزاق الحسن، وشناسي وحسن الاوقاتي وصادق الخياط والضابط البيطري (طاهر)، وكان الطبيب المختص بساحة السباق والحوكية هو الدكتور العراقي جميل دلالي.. وكان السبب في رفض الخيول غير العربية او المهجنة هو ان التركيب الجسدي للخيول العربية لايسمح لها بالمطاولة او حمل الاشياء الثقيلة مثل الخيول الاجنبية التي تسمى (الكنتري) فهي اضخم جسما واطوال خطواً واكثر تحملا للثقل، فالخيول المتسابقة لا يسمح لها بالركض ما لم تحمل ثقلا معينا علاوة على ثقل الجوكي لذلك يوزن الجوكي قبل الركوب وعيار الوزن هو (ستون) الانكليزي ومقداره (١٥) باونا انكليزيا اي نحو سبعة كيلوات، وليس على الجواد الراكض ان يحمل اكثر من (١٢) ستونا مع وزن الجوكي. ولهذا فان الخيول الممتازه جدا وغيرها لا تحمل اكثر من (١٢) ستونا ولا تقبل المراهنة عليها بل تستحق الجائزة فقط اذا ربحت الشوط ذلك وكان معدل السباق سبعة اشواط في يومين هما السبت والاحد او حسب الظروف الجوية وتتسابق فيه خيول الدرجة الاولى والثانية والخيول المبتدئة حسب اعمارها ونشطت اسطبلات الخيل بجانب الكرخ مثل سوق حمادة والشيخ علي وسوق الجديد وبارودة وطرف الحصانة اوزدهرت مهنة المروضين (الترنرية) وانصرف الناس الى المقامرة واللعب وخصوصا بين اوساط الفقراء وزادت جرائم اللصوصية والقتل لغرض الحصول على المال اللازم للمقاصرة وضج الناس من ذلك ولكن الريسسز بقي صامدا اللعب مستمرا والاقبال عليه في ازدياد الامر الذي حدا بالسيد محمود نديم الطبقجلي متصرف لواء ديالى بعد احالته على التقاعد ان يؤسس مضمارا اخر للسباق في اراضي حمدي الباججي قرب بغداد الجديدة. الجالسون على الكراسي ثم الالواح الخاصة لوجهاء القوم واغنيائهم وكبار ملاكي الخيول، وكان يوم الاحد هو يوم تجمع عليه من البريطانيين والعراقيين وقناصل الدول في الواح ساحة السباق بالاضافة الى وجود المطعم للغذاء وتناول المشروبات، وكانت الطبقات الفقيرة الواقفة على ارجلها تشترك في بطاقة واحدة قيمتها (ربيتان) او خمس ربيات عسى ان يربح كل واحد منهم ربية او ربيتين يستعيد بهما ما دفع، وكانت المراهنة تجري على اساس (الوين) ويعطى للفائز الاول او (البليس) للفائز الثاني والثالث. وكان الهرج الاكبر هو ساعة عودة المتفرجين وخصوصا طبقة الحفاة بعد ان خسروا كل مالديهم ليعودوا مشيا على الاقدام الى بغداد جياعا عطاشى.

عندما غرقت بغداد في العشرينيات

غرقتْ بغداد، وذلك سنة ١٩٢٦ حين كان نهر دجلة في اوج الفيضان وذلك ان مضخة زراعية كانت تجاور البلاط الملكي لتسقي بساتين ومزارع الوزيرية ومنها المزرعة الملكية في الوزيرية، وقد رأى السيد توفيق المفتي وكان مديرا للمزارع الملكية ان الوقت مناسب لفتح الناظم غير النظامي الموجود في السدة ولكن الكرادة وفلاحي بستان الرفاعي منعوه من ذلك. فهو يشكل خطرا كبيرا ولا يمكن وقف اندفاع الماء في ذروة الطغيان ولكنه اصر على ذلك اقتصادا في نفقات تشغيل المضخة وحالما اوجد الفتحة في هذا الناظم تدفق الماء منطلقا بقوة لم يستطع لاهو ولا الفلاحون ايقاف الاندفاع. وهرب الفلاحون لانقاذ اطفالهم وممتلكاتهم وتركوا السدة والماء الذي اجتاح الاراضي والبساتين واحاط بغداد حتى الباب الشرقي. وخرج طلاب المدارس للمعاونة في اقامة السدود المؤقتة باكياس مملوءة بالتراب ووصل الماء الى حائط جامع الازبك في باب المعظم وكانت صناديق البضائع والشخاط طافية على سطح الماء هي وكل بضائع (البوند) وهو مخزن السكك الحديد الذي كان في باب المعظم جوار مديرية السجون العامة، وكانت الافاعي والجرذان وجثث الماشية الطافية على سطح الماء وانخفضت مياه نهر دجلة وسيق المفتي للمحاكمة بعد توقيفه وانتهى الامر ونقل البلاط الملكي وسكن الملك فيصل في بيت ضاحيم دانيال الكبير في محلة السنك.

وكاد يتكرر هذا الحادث المأساوي في الخمسينيات حين حدثت كسرة صغيرة في سداد نهر دجلة بالكرادة الشرقية بالقرب من الجسر ذي الطابقين ولكن همة اهالي الكرادة والموقف الحازم، الذي وقفه حاكم الكرادة (القاضي) الاستاذ سلمان بيات حين اشرف على العمل بنفسه وظل يومين كاملين على السداد وبعدها اوقف تسرب المياه بعد ان اغطست وملأت اراضي كثيرة من الكرادة والجادرية وكادت تعبر الى داخل بغداد وحين سألوه عن سبب قيامه بهذا العمل برغم كونه قاضيا لا علاقة له بالفيضان والسداد اجاب (انا مواطن قبل ان اكون حاكما وهذا واجبي).

وباشرت الحكومة ما بين البلاط والاعظمية وما بين البساتين الكثيفة وتبع الناس (آل الجوربجي) الذين بنوا اول بيت فخم على طريق الاعظمية بالقرب من ساحة عنتر وازداد بيع الاراضي والاعمار، وقد حاول مؤسسو نادي صيد الحمام الذي كان قرب جسر الصرافية مقابل بيت المميز اعادة النادي ونشاطه ولكن فشلوا في ذلك لان بناية النادي تهدمت بمياه الفيضان وفي السنة نفسها ذعر اهالي بغداد صباحا على اطلاق نيران كثيفة من البنادق وظهر بعدئذ ان بعض المساجين في سجن بغداد المركزي في باب المعظم قد هربوا عن طريق المستشفى الملكي المجاور للسجن ومنهم الاثوريون المحكومون عن حوادث كركوك لكن مستخدمي المستشفى والشرطة والناس اجمعين تمكنوا من القبض عليهم عدا اربعة منهم ظلوا مختفين حتى المساء في داخل القصب الكثيف النابت في الخندق المجاور لحائط القلعة (وزارة الدفاع) والذي اقيم عليه اخيرا بهو الامانه وقاعة الملك فيصل.